

لغة الموسيقى كأداة للتعبير الفني

زرياب المنوفي سنة 238 هـ.

للشيخ تافيس عبد الرؤوف عجي

عضو المجمع العلمي العراقي

يأخذ احسن ما يسمع ، ويختار خير ما ينفع ،
فحصل على ثقافة جامعة في الادب والعلم والفن ،
ولكنه كان يؤثر الفناء على غيره ، وله من صوته
الجميل خير مساعد .

لازم اسحاق الموصلي - استاذ المقيمين في
عصره - لياخذ عنه ما لم يجده عند غيره . واسحاق
الموصلي : من علماء عصره ، ومكانته من العلم والادب
والشعر ما يقول عنها ياقوت الحموي : « لو اردنا
استيعابه لطلال الكتاب ، وخرجنا عن غرضنا من
الاختصار . ومن وقف على الاخبار ، وتبع الآثار
علم موقعه » .

كان يدخل على المأمون مع اهل العلم والادب
والرواية ، ثم كان يدخل مع الفقهاء ويده في يد القضاة ،
حتى يجلس بين يدي المأمون - وكان المأمون يقول
عنه : « لولا ما سبق لاسحاق على السنة الناس ،
وشهر به من الفناء عندهم لوليت القضاة بحضرتي ،
فانه اولي به واحق واعف ، واصدق تدينا من هؤلاء
القضاة » .

أخذ زرياب عن هذا العالم الاديب ، والفنان
البارع ، واقتبس من ادبه وفنه . وكان اسحاق يعني
بهذا الفتى لما رآه عليه من الذكاء والفطنة وسرعة
الاخذ كما انه من موالى أمير المؤمنين ، فكان يحضره
مجالسه التي يعقدها في داره ، والتي كانت مجمعا

أبو الحسن علي بن نافع مولى أمير المؤمنين الخليفة
المهدي بن المنصور العباسي ، كان اسود اللون ، حلو
الشمائل ، جميل الصوت ، فصيح اللسان ، فلقبوه
« بزرياب » تشبيها له بطائر غرد ، حسن الصوت ،
يقال له « زرياب » . نشأ زرياب في بغداد ، وهي اذ
ذاك : دار السلام ، وقيّة الاسلام ، مقر الخلافة ،
ودار العلم والادب والحكمة ، ومجمع اهل الفنون
والصناعات ، حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وهو
ما حمل الامام الشافعي (رض) ان يقول لمن لم ير
بغداد : « ما رأيت الدنيا ولا الناس » .

وزرياب يتقلب في قصور الخلافة ، وما فيها
من ترف ونعيم ، وخمائل باسقة ، وازهار عبقة ،
وجنات تجري من تحتها الانهار ، وملاعب تميز فيها
كواعب ، قد جمعن الظرف والادب ، والفن والجمال
والدلال .

كن فتنة الناظر ، وغرة العابر ، وخل المقيم ،
مما حمل الكتاب والشعراء ان يهيموا بوصفها ،
واتخذوا من حدائقها وملاعبها المسارح التي مثلت
فيها فصول « الف ليلة وليلة » .

في هذا المحيط الزاهي نشأ الفتى زرياب ،
الذكي الفؤاد ، الدقيق النظر ، الصافي البصيرة ،
فكان يتقلب في نعيمها ، ويتفياً ظلالتها ، ويستمتع
الى كواعبها ، ويتصل بمن يرتادها من اهل الادب
والفن ، فيقتبس من علمهم ، وينهل من ادبهم :

حضر اسحاق الموصلي مجلس الرشيد ،
وتشعب الحديث في الادب والفن ، فطلب الرشيد من
اسحاق مغنياً مجيداً للصنعة . لم يشتهر مكانه اليه .

واسحاق كان يتقرب الى الرشيد بكل ما
يؤنسه ، ويظهره بما عنده من اصوات وظرف وادب ،
واراد ان يتحف الرشيد بأحد تلاميذه - من موالي
دار الخلافة - لما كان يعرف فيه من الذكاء والفطنة
وسرعة التقي عنه . فقال اسحاق للرشيد يا مولاي:
عندي تلميذ - وهو مولى لكم - اسود اللون . عذب
الشمال ، حلو التفريد ، سمعت له نزعاً حسنة ،
ونغمات رائعة ، ماتاطة (1) بالنفس ، اذا أنا وقتته
على ما استغرب منها - وهو من اختراعي . واستنباط
فكري ، واحسن أن يكون له شأن - فان أذن لي
أمير المؤمنين قدمته اليه . ولم يعلم اسحاق ان هذا
الذي يتوسم فيه الذكاء والفطنة سيفني أمير المؤمنين
بما لم يحسنه اسحاق . وسيبغته بما وضع وأبدع .

أمره الرشيد باحضاره - لعل حاجته تكون
عنده ، وهكذا فان الساعة التي كان يترقبها زرياب
قد أتته عفواً ، فقد أمر الخليفة باحضاره اليه ليفني
امام استاذه الذي أخذ عنه .

أخذ زرياب يعد عوده ، وأحسن ربط أوتاره ،
وأختار الاصوات التي سيفني الخليفة بها ، ويبز
استاذه ويفوقه .

حضر زرياب مع استاذه اسحاق يحمل العود
الذي قد أعدّه نفسه ، وهو يختلف عن عود استاذه ،
ومثل امام الرشيد ، واستاذه فخور بتلميذه الذي
سيفني أمير المؤمنين بما استنبطه هو ولقنه إياه .

كلم الرشيد زرياب ، فأجاب زرياب بأحسن
منطق وأوجز خطاب ، مع فصاحة لسان وظرف
وادب .

سأله الرشيد عن معرفته بالفناء ، فقال : نعم
أحسن ما لا يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا
يحسنونه ، مما لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر الا لك ،
فان أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك .

بهت استاذه اسحاق مما سمع ، ولم يكن
يتوقع هذا ، فهل يجزؤ احد امام اسحاق الموصلي أن

لاهل الفنون والاداب ، وزرياب ينهل من كل ما يروق
له ، وما يؤهله ان يخاف استاذه في مكانته .

ينزل اسحاق عناية خاصة في تدريبه وتعليمه
الاصوات التي يضعها ، والايقاعات التي يبدعها .
وكان الفتى النابه ينصرف الى ما يلقىه استاذه ،
ويتأمل في اصواته ويدقق مواضع القوة فيها ، فكان
في طليعة الذين يأخذون عنه ، وهذا ما حمل استاذه
على مضاعفة العناية به ، والانصراف الى تعليمه كل
نادر وغريب ، حتى كان من طلابه الذين يفاخر في
تعليمهم وتهذيبهم .

كان زرياب كلما تلقى صوتاً من استاذه اسحاق
- او من غيره - تلقف الصوت وردده مع نفسه حتى
يتقنه ، فاذا عاد الى داره واخلى بنفسه ، أجرى
على الصوت ما يبدو له اذا ما غير في ترديده ،
فلم يزل يبدل وينقح ويهذب في الصوت ، حتى
يبتكر صوتاً جديداً جميلاً قائماً بذاته لم يسبق اليه .

وهكذا كان دأبه في كل صوت يسمعه ، او
ضربات يتلقاها من شيخ المفيين اسحاق الموصلي ،
فانه يدخل عليهما من التعديل والابتكار ما يجعلهما من
اجمل ما أبدعته قريحة هذا الفتى الناشيء .

اشتغل زرياب بهدوء وسكينة وام يطلع احدا
على ما كان يقوم به ، حتى استاذه الذي تربى بين
يديه ، واخذ عنه ، فانه لم يكن يعلم ما عند زرياب من
روائع الاصوات - وزرياب مستمر التردد الى
استاذه ، يسترق من اصواته ، ويلتقط من ظرفه
وادبه ، ويواصل التهذيب والتحسين والابتكار ، حتى
صار يطعم ان يخلف استاذه في فن مبتكر ، بل كان
يطعم الى اكثر من هذا - وهو ان يبهز استاذه بما لم
يسمع مثله .

أخذ زرياب يترقب اليوم الذي يباغت فيه
المجتمع بفن دقيق مبتكر ، يعجز استاذه - استاذ
الفن والطرب في بغداد - عن الاتيان بمثله ، مما
حماله على حسده وتهديده بالقتل ان لم يرحل عن
بغداد ، ويحافظ على منزله التي كان عليها في بلاط
الرشيد .

(1) لاصقة

يقول ما قاله هذا التلميذ الناشيء ؟ وصار يترقب
سماع الصوت بدهش وعجب .

امر الرشيد باحضار عود استاذة اسحق ليفني
زرياب . فلما قدم اليه وقف عن تناوله وقال : يا
امير المؤمنين : لي عود نحتته بيدي ، وارہفته باحكامي
ولا ارتضي غيره - وهو بالباب - فلياذن لي امير
المؤمنين في استدعائه : فامر الرشيد بادخاله اليه .

تأمله الرشيد ، وكان شبيها بالعود الذي دفعه
له - عود استاذة - وقال له الرشيد : ما منعك ان
تستعمل عود استاذك ؟ فقال زرياب : ان كان مولاي
يرغب في غناء استاذي ، غنيته بعوده ، وان كان
يرغب في غنائي فلا بد من عودي . فقال له الرشيد :
ما اراهما الا واحدا .

فقال زرياب : صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي
النظر غير ذلك ، ولكن عودي - وان كان في قدر
جسم عوده ومن جنس خشبه - فهو يقع من وزنه
في الثلث او نحوه . واوتاري من حريس لم يفزل
بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة . وبمها ومثلثها
اتخذتها من مصران شبل الاسد ، فلها في الترسم
والصفاء والجهارة والحدة اضعاف ما لغيرها من
مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على
تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها .
فاستبرع الرشيد وصفه واذهل اسحق ما سمع .
ثم اندفع زرياب وغنى :

يا ايها الملك الميمون طائره

هارون راح اليك الناس وابتكروا

- 3 -

سقط في يد اسحق فقد سمع من احد تلاميذه
ما فيه من الروعة والابتقان والابتكار ، مما جعل امير
المؤمنين يعجب به غاية الاعجاب ، ويؤكد على
اسحق : انه لولا ما يعلمه عنه من الصدق لانزل
المقوبة به ، اذ لم يطلع على ما قد ابتكره هذا الفنان
المبدع - وهل يترك اسحق الموصلي زرياب معه في
بغداد يتبوا مكاتته ؟ بل يسمو فوقه فيبعده عما هو
عليه ، وتكون له زعامة الفناء في دار السلام .

فلا بد من ان يصارحه بما يكنه له صدره من
الحسد ، وان بقاءه لا يمكن ان يكون في بغداد ، والا
يؤدي به الى موته .

خلا اسحاق بزرياب وقال له : يا علي ، ان
الحسد اقدم الادواء وادوؤها ، والدينيا فتانة ،
والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ،
وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجادتك ، وعلو
طبقتك . وقصدت منفعتك ، فاذا قد اوتيت نفسي
من مأمنها بادنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ،
وترتقي انت فوقي ، وهذا ما لا اصاحيك عليه - ولو
انك ولدي - ولولا رعيي لذمة تربيتك ، لما قدمت
شيئا على ان اذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ،
فتخير في اثنتين لا بد لك منهما : اما ان تذهب عني
في الارض المريضة ، لا اسمع لك خبرا ، بعد ان
تعطيني على ذلك الايمان الموثقة ، وانهض بذلك لما
اردت من مال وغيره ، واما ان تقيم على كرهني ورغمي
مستهدفا لي ، فخذ الآن حذرک مني ، فليست والله
ابقي عليك ، ولا ادع اغتيالک باذلا بذلك بدني ومالي ،
فاقض قضاءك .

خرج زرياب وهو يفكر بالامر ، فهو يعلم ان
استاذة لا يحجم عن قتله اذا اقام في بغداد ، ولا بد له
من الرحيل عنها في بلاد الله الواسعة - وعلى هذا
عاد الى استاذة وابدى له رغبته في الرحيل عن
بغداد ، والتوجه الى بلاد المغرب بعيدا عن اسحاق
وبغداد - هذا روع اسحاق وزال عنه ما كان في
قلبه من هم ، وساعد زرياب بما يحتاجه من مال .

وبعد ايام فرغ الرشيد من شغل كان منغمسا
فيه ، واشتاق الى سماع اصوات زرياب ، فامر
اسحاق الموصلي باحضاره .

واسحاق من دهاة عصره ، قد ارضى الخليفة
ورجال دولته في تصرفه ورجاحة عقله ، فهل
يعجز عن اجابة الخليفة بما يضرفه عن زرياب ؟

قال اسحاق : ومن لي به يا امير المؤمنين ؟
ذاك غلام مجنون ، يزعم ان الجن تكلمه وتطارحه ما
يزهى به من غنايه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ،
وما هو الا ان ابطات عليه جائزة امير المؤمنين ،
وترك استعادته ، فقدر التقصير به ، والتهويس
بصناعته ، فذهب مغاضبا ذاهبا على وجهه ،
مستخفيا عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك
لامير المؤمنين ، فان كان به لم يفشاه ويفرط خطبه ،
فيفزع من رآه .

سكن الرشيد الى ما قاله اسحاق ، وقال :
على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير .

وهكذا تمكن اسحاق من صرف زرياب عن بغداد ، وصرف الرشيد عن زرياب ، وصرف الهم عن قلبه .

- 4 -

نسي امر زرياب في المشرق ، ولم تقف على ذكر له بين الفنانين الذين نبغوا في العصر العباسي . ومع ان ابا الفرج الاصفهاني ترجم في كتابه (الاغاني) لاصحاب الاصوات الذين عانوا صناعة الغناء في المشرق ، فانه لم يتطرق الى ذكر زرياب والاصوات الجميلة التي وضعها - ذلك لانه اول نبوغه هدد بالقتل ان لم يرحل عن بغداد - فرحل الى بلاد واسعة ، ووجد اهلا غير اهله ، واقبالا لم يكن يتوقعه ، فكان زعيم الغناء في الاندلس والمغرب - كل هذا ولم يدون اهل بغداد ما ابدعه فتى اسحاق الموصلي الذي خرج من بغداد خائفا يترقب .

توجه زرياب الى الشام ، ومنها الى مصر ، ومنها ركب البحر قاصدا المغرب ، ولما وصل تونس اتصل بزيادة الله بن الاغلب (201 - 208 هـ) وحظي عنده ، فكان يحضر مجالسه ، ويشارك بما يدور فيها من ادب وفن ، ويغنيه ، فأعجب به ابن الاغلب وقربه اليه .

وفي احد الايام من سنة 206 هـ طلب ابن الاغلب من زرياب ان يغنيه ، فغناه بايات لعنترة الفوارس :

فان تك امي غرايية

من ابناء حمام بها عبتني

فاني لطيف ببيض الطبا

وسمر العوالي اذا جئتني

ولولا فرارك يوم الوغا

لقدتلك في الحرب او قدتني

ففضب ابن الاغلب من تعريضه هذا ، وامر بصنع قفاه ، واخرجه من عنده ، وقال له : ان وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة ايام ضربت عنقك .

ولا نعلم سببا لتعريضه بالامير الاغلب ، وزرياب من اذكيا عصره ، فطن دقيق الملاحظة ، فهل كان

هذا هفوة من زرياب ؟ او خاطر خطر له ؟ وربما كان الامر في نفسه - وعلى كل فقد بدر منه ما اغضب ابن الاغلب ، واوجب خروجه من تونس قاصدا بلاد الاندلس .

- 5 -

وكان اهل الاندلس يتطلعون الى ما في المشرق من حضارة زاهية ، وعلم وادب وفن ، وجدوا في الاستفادة مما عند القوم ، فرحل الكثير من اهل الاندلس الى بلاد المشرق ، واخذوا عن علمائه وادبائه ، وتعلموا فنونه وصناعاته ، ورجعوا الى بلادهم ينشرون ما حملوه معهم .

كما رغب الامراء الامويون بنوايح اهل المشرق ، وشوقوهم بالرحلة الى بلادهم ، وبذلوا لهم الاموال الوفيرة ، وقدموا لهم كل مساعدة ، ليستفيدوا من علمهم وفنهم . وكانوا يبذلون الاموال في الحصول على ما يستجد في المشرق من كتب قيمة . فقد بذل الامير الحكم لابي الفرج الاصفهاني الف دينار قيمة نسخة من كتابه الاغاني قبل ان ينتشر في المشرق .

هذا الاقبال من اهل الاندلس حمل العلماء وارباب الفنون ان يمموا شطرها ، ويرحلوا اليها ، وينشروا علومهم ومعارفهم فيها . فرحل عدد منهم الى الاندلس ، ونالوا من امرائها واهلها من الحفاوة والاحترام والاموال الوفيرة ، ما حملهم ان يستقروا في هذا البلد الطيب ، واثروا آثارا حسنة في التدريس والمحاضرة والتأليف .

كتب زرياب الى الامير الحكم بن هشام ، يعلمه بمكانته في الغناء ، ويمرض عليه التوجه اليه . فسر الحكم بهذا ، وكتب اليه مرحبا به ، وارسل لاستقباله وتدبير سفره فغنيه منصور اليهودي .

ولما كان في الجزيرة الخضراء ، بلغه وفاة الحكم ، فهم بالعودة الى بلاد العدو ، فثناه عن ذلك رسول الحكم ، وبين له شغف عبد الرحمن بن الحكم بالغناء والموسيقى . ورفع منصور اليهودي امر زرياب الى عبد الرحمن يعلمه بمكانته ، وعبد الرحمن هذا من اكثر الامراء الاندلسيين شغفا بالاداب والفنون والغناء . يحضر مجلسه العلماء والادباء وارباب الفن - وخاصة المغنون والموسيقيون - وهو يجزل لهم العطاء . سر عبد الرحمن بخبر زرياب ، وكتب اليه يعلمه بتطلعه اليه ، والسرور بقدمه عليه ،

ويمنيه ويرغبه . كما كتب الى عماله على البلاد التي
سيمر بها زرياب ، ان يحسنوا اليه ، ويقدموا اليه
كل ما يحتاجه ، ويوصلوه الى قرطبة .

وارسل الى احد اكابر مواليه ان يتلقاه ببغال
والآلات حسنة . دخل زرياب قرطبة ليلا - صيانة
لحرمه - وامر الامير ان ينزلوه في دار جميلة من
احسن الدور ، وان يحمل اليها جميع ما يحتاج
اليه ، وان يحملوا اليه الخلع .

وبعد ثلاثة ايام استدعاه ، ورحب به اجمل
ترحيب ، ودعاه الى تناول الطعام معه ، مع اولاده
الكبار ، وامر ان يفرض له ولاهله من الرواتب
والخلع ما يقدر بالآلاف الدنانير سنويا ، واقطعه من
الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ، ومن الضياع
ما يقوم بأربعين الف دينار سنويا .

وزرياب قد اعد نفسه لمثل هذا اليوم الذي كان
يترقبه ، فهو في كنف امير معجب به ، مشغوف
الى سماعه ، فابدى في الاصوات التي كان يغنيه
بها ، فما ان سمعه عبد الرحمان حتى استهواه ،
واجبه حبا شديدا ، وانطرح كل ما سواه من الفنين،
وادناه من مجلسه ، وامر بفتح باب خاص لزرياب
يستدعيه منه متى اراده . وزرياب قد جمع الى ما
امتاز به من الفناء ، عذبة مزاييا رقيقة : كان شاعرا
عارفا بفنون الأدب، ونطف المعاشرة والظرافة، وعنده
من آداب المجالسة ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة
الملوكية ، مالم نجده عند غيره من اهل صناعته .

كيف لا يجمع زرياب هذه الصفات الجميلة ، وهو
الذي تربى في بلاط العباسيين ، وتقلب في نعيمهم،
وتنقل في جنائهم وخمائلمهم ، وحضر مجالسهم ،
ولازم اعالي القوم في العلم والادب والفن - ربيب
المهدي العباسي ، وتلميذ اسحاق الموصلي ، وخريج
مدرسة بغداد دار العلم والحكمة والفن . هذه
الخصال اثرت في اهل الاندلس ، حتى اتخذها ملوكهم
وخواصهم قدوة حسنة فيما سنه لهم من قواعد
وآداب ، واستحسنه من اطعمة وثياب ، وما ابتكره
من عطور - وبقي اثر هذا فيهم الى آخر ايام اهل
الاندلس منسوبا اليه .

وهكذا انتقلت الدنيا لزرياب ، فقد كان مرجع
القوم في الفناء وفي التأثيرات الاجتماعية ، تسمع
كلمته في البلاط الاموي ، وينقاد اليه سراة القوم
ووجهائهم ، يبذلون له العطاء ويتوقعون رضاه ،

حتى قالوا : يؤثر على بلاط الامير عبد الرحمن اربعة
اشخاص : فقيه : يحيى بن يحيى الليثي ، وموسيقى:
ابو الحسن زرياب ، وامرأة : السلطانة طروب ،
وخصي : نصر .

ومع انه كان مسموع الكلمة في البلاط الاموي،
الا ان عقله منعه عن التدخل في شؤون سياسة
البلد ، وتركها لغيره .

صرف نفسه الى فنه الذي كان سبب ظهوره
ونبوغه ، لانه علم حق العلم ان خير طريق للنجاح في
الحياة هو تجنب ما لا نصيب له فيه ، والانصراف
الى فنه الرفيع الذي ينقاد اليه الامير ورجال
سياسته ، على اختلاف ميولهم ورغباتهم - وعلى هذا
فلا نرى له ذكرا في الحوادث السياسية ،
التي كانت على عهده ، فهو مغني البلاط وكفى .

انصرف زرياب الى الفناء والابتكار فيه ،
وشغل بهذا كل مواهبه وقابليته ، واطلع على ما في
الاندلس من الحان ، اخذ بعضها عن سكان البلاد
الاصليين، فكانت هذه عاملا جديدا في تطعيم الاصوات
التي يبتكرها ، كان الفناء قد شغل كل وقته حتى
اذا رقد في منامه ، فانه كان يواصل تفكيره في
الاصوات المختلفة ، والاشعار التي تناسب كل لحن
يغنيه ، فلم تنقطع سلسلة افكاره عن هذا الفن
الجميل . فاذا آوى الى فراشه واهتدى الى لحن
جديد ، او شعر جميل ، هب من نومه مسرعا ،
فيدعو جارتيه غزلان وهنيدة ، فتأخذان عوديهما ،
ويأخذ هو عوده، ويطارحهما ليلته ما اهتدى اليه من
لحن ، ويكتب الشعر الذي نظمه ، حتى اذا اتقنتاه
عاد الى فراشه .

وعلى هذا قال عنه معاصروه : ان الجن كانت
تطارحه الالحن ليلا فيتعلمها . وما الجن الا شغفه
بهذا الفن الرفيع الذي كان قد اخذ عليه كل وقته -
حتى عند النوم فانه كان يحلم في ترديد الاصوات
وترجييعها ، هذا هو الالهام الفني - جنون الفن -
وهو ما قيل عن كثير من الشعراء والفنانين الموهوبين
الذين يبدعون في شعرهم وفنهم . وكم ذكروا ان
للشعراء شياطين يوحون اليهم زخرف القول ،
فيأتون بما لم يات به غيرهم . وما شياطينهم الا

انصرفهم الى الشعر وكثرة تفكيرهم فى محاسنه واوازانه ، وروائعه ، فيأتون بما لم يتهيا لهم غيرهم .

- 6 -

كان لزرياب معهد يقصده اصحاب الحناجر الرخمة، والاصوات الجميلة ، يتلقون عنه الالحن ، وما ابدعه من الاصوات والايقاعات .

ولم يكن زرياب يقبل احدا فى معهده ، الا بعد ان يقف على نبرات صوته ، وصلاح حنجرتة ، وقابليته الى تلقي الالحن والاصوات ، وعلى هذا فقد كان يختبر من يقصده للأخذ عنه - وقد حدثنا المقرئ عن كيفية اختباره لمن يقصده فقال :

« وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت - المراد تعليمه - من غير المطبوع ، امره ان يصيح بأعلى صوته : يا حجام . او يصيح : آه . ويمد صوته ، فاذا سمع صوته بهما صافيا نديا قويا مؤديا لا يعتربه غنة ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف انه سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك ابعده .

وهكذا بعد ان يختبر من يقصده ، ويتحقق صلاحه ، يسلمه الى الذين يأخذون عنه ، فيتعهدون تدريبه تدريبا اوليا ، حتى اذا وقف على مبادئ هذا الفتى الجميل ، تعهده بنفسه مع الذين يأخذون عنه . فاذا حضر التلميذ عنده للأخذ عنه ، كان يرشده الى كيفية الجلوس ، وطريقة اخراج الصوت من الفم ، والطرق التى يحسن بها نبرات صوته ، بحيث يجعله يناسب اللحن والايقاع اذا ما غنى .

قال المقرئ فى هذا :

« وكان اذا تناول الالتقاء على تلميذ يعلمه، امره بالعود على الوسائد المدورة المعروفة بالمسورة ، وان يشد صوته جدا - اذا كان قوي الصوت - فان كان لينه ، امره ان يشد على بطنه عمامة ، فان ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسما فى الجوف عند الخروج عن الفم . فان كان الص الاضراس ، لا يقدر

ان يفتح فاه ، او كانت عادته زم اسنانه عند النطق، راضه بان يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث اصابع بيبتها فى فمه ليالي حتى ينفرج فكاه ، وهو رأى عالم بنبرات الاصوات ومخارجها ، وما يساعده على تهذيبها واطهارها بصورة جلية .

اخذ عن زرياب اولاده وكثير من اهل الاندلس رجالا ونساء، ونشروا فنه فى طول الاندلس وعرضها، فكانوا دعاء نهضة فنية ، طغت على الاندلس ، وتعدتها الى شمال افريقية ، وطبعتها بطابع الالحن التى ابدعها زرياب . بقيت هذه النهضة الى القرن الثامن للهجرة ، وهي تسير على القواعد التى وضعها زرياب والالحن التى ابتكرها وابدع فيها ، مما جعل ابن خلدون يقول عن تأثير غنائه :

فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ، ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على انصارها ، وبها الآن صبابة على تراجع عمرائها وتناقض دولها .

ومن اخذ عنه وبرز فى الغناء اولاده العشرة (1):

1 - عبيد الله كان خليفة والده ، واعلا اخوته فى الغناء .

2 - عبد الرحمان : وهذا يابى عبيد الله فى الغناء ، وكان يشوب علمه تبه وزهو وكثرة العجب بغنائه ، وهذا مما سبب له مشاكل كثيرة فى مجالس الغناء التى كان يقيمها (2) ، ويذكر ابن خلدون ان عبد الرحمن هذا خلف والده فى هذه الصناعة ، ولربما عمر اكثر من عبيد الله ، فكان المرجع اليه فى الغناء .

3 - اما محمد بن زرياب فكان مؤنثا .

4 - واما القاسم بن زرياب : فكان احد قهم غناء مع تجويده .

5 - واما احمد بن زرياب : فكان قد غلب عليه الشعر .

(1) كان لزرياب اربعة اولاد يوم دخل الاندلس ، وهم : عبد الرحمن وجعفر ، وعبيد الله ويحيى . وولد له فى الاندلس اربعة بنين : محمد وقاسم واحمد وحسن ، وبنتان : علية وحمدونة .

(2) نفع الطيب : 4 : 125 .

6 - واما حمدونة بنت زرياب: فكانت متقدمة في
اهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، تزوجها الوزير
هشام بن عبد العزيز .

7 - اما علية بنت زرياب : فطال عمرها بعد
اختها حمدونة ، ولم يبق من اهل بيتها غيرها ،
فافتقر الناس اليها ، وحملوا عنها ، فكانت مرجعا
للمعهد الزريابي ، يقصدها اهل الفن ، ويأخذون
عنها .

ومن جواربه :

1 - مصابيح : جارية الكاتب ابي حفص عمر
بن قلهيل ، وهي ممن اخذ عن زرياب ، وصارت غاية
في الاحسان والتبل وطيب الصوت .

مر ابن عبد ربه (3) فسمع غناءها ، واشتاق ان
يدخل اليها فأبى مولاها . فقال ابن عبد ربه الى
مسجد قريب من المكان ، واخذ لوحا من صبي وكتب
هذه الايات وارسلها الى مولاها :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد
ما كنت احسب هذا الضن من احد

لو ان اسماع اهل الارض قاطبة
اصفت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلا تضن على سمعي مقلده
صوتا يجول مجال الروح في الجسد

لو كان زرياب حيا ثم اسمعه
لذاب من حسد، او مات من كمد

اما النبيذ فاني لست اشربه
ولست آتيك الا كسرتي بيدي

فلما قراها مولاها ، خرج اليه حافيا ، وادخله
مجلسه ، وتمتع ابن عبد ربه من سماعها .

2 - متعة : جارية زرياب ، اعتنى في تاديبها
وتعليمها احسن اغانيه ، وشبت رائعة الجمال ،
وتصرفت بين يدي الامير عبد الرحمن بن الحكم ،
تغنيه مرة، وتسقيه اخرى، وكان الامير معجبا بجمالها
وبصوتها ، فلما فطنت لاجاباه بها ، ابدت له دلائل
الرغبة ، ولكنه ابي الا التستر ، فنظمت هذه الايات
وغنته بها :

(3) صاحب « العقد الفريد » .

يا من يغطي هواه
من ذا يغطي النهارا ؟

قد كنت املك قلبي
حتى علقت فطارا

يا ويلتاه ائسراه
لي كان ، او مستعارا ؟

يا بابسي قرشي
خلعت فيه المدارا

فلما انكشف لزرياب امرها ، اهداها الى الامير
عبد الرحمن ، وحظيت عنده .

3 - اما هنيذة وغزلان فقد تقدم الكلام عنهما .

ومما اجراه على العود في الاندلس :

1) كانت اعواد القوم ذات اربعة اوتار ، فاضاف
هو اليها وترا خامسا ، واتخذ الاوتار من حرير لم
يفزل بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة وقد تقدم
الكلام عنها .

2 - كانت الاعواد ثقيلة الوزن ، تجهد الضارب،
وربما عاقته عن تادية الضرب كما يسوي ، فجعل
زرياب عوده صغير الحجم ، خفيف الوزن ،
جميل الشكل ، دقيق الصنع ، يستهوي
النفس ، ويمثل جمال الالحن التي يضربها زرياب .

3) كانت مضارب العود من خشب ، ثقيلة على
الانامل ، تؤثر في الاوتار عند الضرب ، وربما
قطعتها او افسدتها في ايام معدودة . فعدل عنها
زرياب بأن اتخذ المضرب من قوادم النسر : خفيف على
الانامل ، رقيق بالاوتار ، لين في اليد ، مرن
الاستعمال ، يحدث اهتزازات في الاوتار ، ما لم
تحدثه المضارب الخشبية الصلبة .

ومما سنه في الغناء : ان كل من افتتح الغناء
يبدا بالنشيد اول شدوه باي تقرر كان، ويأتي اثره
بالبسيط، يختم بالمحركات والاهواج تبعا لمراسيم
زرياب .

ذكر المؤرخون ان اسلم بن احمد بن
سعيد الف كتابا في الاصوات التي وضعها

الاجتماعية فيها : الطعام والازياء وتصنيف الشعر
وابتكار عطور وادهان وغير ذلك .

ففى الطعام وما يتبعه من لوازم :

1 - كان زرياب اول من اجتنى بقلة الهليون
المسماة بلسانهم بالاسفراج ، ولم يكونوا يعرفونها
قبله .

2 - وعلمهم زرياب طبخ النقايا ، وهو مصطنع
بماء الكزبرة الرطبة ، محلى بالسنبوسق والكباب ،
ويلي هذا عندهم لون التقلية المنسوبة اليه «زريابية» .

3 - كان الاندلسيون يتخذون الآنية الرفيعة
الثلثي ، ويحلونها بالذهب والفضة ، ويتنافسون فى
هذا ، فاتخذ زرياب آتيته من الزجاج الجميل ،
فقلده الاندلسيون فى هذا .

4 - فضل زرياب استعمال سفر الاديم على
الموائد الخشبية لتقديم الطعام ، لان الوضر يزول عن
الاديم باقل مسحة ، فأخذ الاندلسيون بهذا .

5 - كان زرياب يفضل فرش الانطاع الاديمية
الناعمة اللينة على ملاحف الكتان ، فانتشر هذا فى
الاندلس .

واما تأثيره على الازياء فى الاندلس : فانه راي
ان يلبس كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق
به . فيكون ابتداء الناس بلباس البياض . ثم يلبسون
اللون من يوم مهرجان اهل البلد المسمى عندهم
« بالعنصرة » الكائن فى ست بقين من شهر يونيو
(حزيران) ، الى اواخر شهر اكتوبر (تشرين الاول) .
وان يلبسوا بقية السنة الثياب الملونة .

ورأى ان يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر
والبرد المسمى عندهم « الربيع » من مصبغهم جباب
الخز والملحم والمحرر والدراربع التى لا بطائن لها ،
لقربها من لطف ثياب البياض .

وكذا راي ان يلبسوا فى آخر الصيف وعند
اول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما
شاكلها من خفائف الثياب الملونة ، ذوات الحشو
والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد فى
الغدوات ، الى ان يقوى البرد ، فينتقلون الى اثنى
منها من الملونات ، ويستظفرون من تحتها اذا احتاجوا
الى صنوف الفراء .

زرياب ، ومما يؤسف له ، اننا لم نعلم
على ذكر لهذا السفر النفيس ، الذى جمع
روائع الفن وما ابتكره زرياب من اصوات جميلة ، وما
نظمه من شعر يقنى به . فان هذا الكتاب كان يطلعنا
على الحان رائعة ، واصوات مبتكرة ، ابدعتها
قريحة زرياب - طمست مع افول شمس العرب فى
الاندلس ، ولم يبق منها ، الا صياحة تذكرنا بما كان
من التأثير القوي فى الفناء الاندلسي الذى قرر
قواعده ، معلم الناس الفن والمروءة (زرياب) .

زرياب من نوادر عصره ، جمع - الى تفوقه فى
الفناء - علوما وفنونا وادابا . ذكروا عنه انه كان
يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها ،
وهذا ما ساعده على حل كتاب الموسيقى لبطليموس ،
لان هذا العدد هو غاية ما ذكره بطليموس - واضع
هذه العلوم ومؤلفها - فى كتابه .

كان زرياب شاعرا ، ويمتاز شعره بالركة
والعذوبة ، كيف لا يكون شعره رائقا ، وقد صدر
عن شيخ الفنانين صاحب الاصوات المبتكرة البديعة ،
والالحن التى لم يزل تأثيرها فى الشرق والغرب .
ومن شعره :

علقتها ربحانة هيفاء عاطرة نضيره
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيره
لله ايام لنا سلفت على دير المطيره
لا عيب فيها للمتيسم غير ان كانت قصيره
وقوله ايضا :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقتني
حمام تداعت فى الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كل ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

كان عالما بالنجوم واحكامها ، يعرف الاقاليم
السبعة وما فيها من عوارض طبيعية ، ومدن وعمران ،
وما فى هذه من سكان وخيرات ، ويعرف طبائع
ومبول سكانها ، وما تشتهر به كل مدينة ، فاذا تكلم
بهذا تكلم عن علم ومعرفة .

لم يقتصر تأثير زرياب على اهل الاندلس فى
الفناء فقط ، بل كان له تأثير كبير على الحياة

حدث علوية المغني قال: كنت مع المأمون لما خرج الى الشام ، فدخلنا الى دمشق ، وطفنا فيها ، وجعل يطوف على قصور بني أمية ويتبع آثارهم ، فدخل صحننا من صحنها ، فاذا هو مفروش بالرخام الاخضر كله ، وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها و . . . واقبل المأمون علي فقال : غني ونشطني ، فكان الله عز وجل انساني جميع ما أحفظه الا هذا الصوت :

لو كان حولي بنو أمية لم ينطق رجال اراهم نطقوا

فنظر الي مقضبا وقال : عليك لعنة الله وعلى بني أمية ، وبلك قلت لك سرني ام سؤني ، ألم يكن لك وقت تمدح فيه بني أمية الا هذا الوقت ؟

فتجلدت عليه ، وعلمت اني قد اخطات ، فقلت: اتلومني على أن اذكر بني أمية ، هذا مولاكم زرياب عندهم يركب في مائتي غلام مملوك له ، ويملك ثلاثمائة الف دينار وهبها له ، سوى الضياع والخيل والرقيق وأنا عندكم اموت جوعا .

هذا هو زرياب الذي ترك بغداد مكرها ، وعاش في الاندلس مترفا مكرما ، وصار مضرب المثل في الشرق والغرب .

واما تأثيره على تصفيف الشعر : دخل الاندلس وجميع من فيها - من رجل او امرأة - يرسل جمته مفروقا وسط الجبين عاما للصدفين والحاجبين ، فلما راوا تحديفه هو وولده ونساءه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى اصداهم - هوت اليه انفسهم ، فاستحسنوه وقلدوه .

وابتكر ادھانا ومعاجين لطيفة وروائح عطرية تزيد من جمال البشرة وتكسيها رونقا وبهاء .

كان مارك الاندلس والمترفون يستعملون ذرور الورد وزهور الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد لطرذ الصنان والروائح الكريهة ، فلا تسلم ثيابهم من وضر . فداهم على تصعيدها بالملح وتبييض لونها ، فجرّبوه وحمدوه على ذلك .

هذا تأثير زرياب على اهل الاندلس ، فقد كان ناملا قويا في تهذيب اغانيهم وتنسيق ثيابهم ، وتهذيب طعامهم وآنيتهم وادابهم الاجتماعية ، فهو قدوة القوم في كل ما يصدر عنه . وعلى هذا فان اهل الاندلس احلوا زرياب بالمحل اللائق به ، وبخدماته الجليلة التي سنها لهم . فقد حظي فتى اسحاق الذي ترك بغداد مكرها من الفنى والترف والعزة ، ما جعله مضرب المثل في الاندلس ، ويتعداها الى شمال افريقية ، ويتجاوزها الى بلاد الشرق . ومن ذلك ما رواه الصابي في كتابه الهفوات النادرة قال : (ص : 385 - 386)